فرسان بالنهار رهبان بالليل

(8)

الزبير بن العوام

حواريّ رسول الله

رضي الله عنه وأرضاه

لا يجيء ذكر طلحة إلا ويذكر الزبير معه ..

ولا يجيء ذكر الزبير إلا ويذكر طلحة معه ..

فحين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يؤاخي بين أصحابه في مكة قبل الهجرة ، آخى بين طلحة والزبير .

وطالما كان عليه السلام يتحدث عنهما معا.. مثل قوله :

"طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ جَارَايَ فِي الجَنّة ."

وكلاهما يجتمع مع الرسول ﷺ في القرابَة والنسب.

أما طلحة، فيجتمع في نسبه مع الرسول ﷺ في مرة بن كعب.

وأما الزبير، فيلتقي في نسبه مع الرسول ﷺ في قصّي بن كلاّب كما أن أمه صفية عمة الرسول ﷺ ..

وكل منهما طلحة والزبير كان أكثر الناس شبها بالآخر في مقادير الحياة..

فالتماثل بينهما كبير، في النشأة، في الثراء، في السخاء، في قوة الدين، في روعة الشجاعة، وكلاهما من المسلمين المبكرين باسلامهم...

ومن العشرة الذين بشّرهم الرسول ﷺ بالجنة. ومن أصحاب الشورى الستة الذين وكّل اليهم عمر اختيار الخليفة من بعده.

وحتى مصيرهما كان كامل التماثل.. بل كان مصيرا واحدا.

ولقد أسلم الزبير، اسلاما مبكرا، اذ كان واحدا من السبعة الأوائل الذين سارعوا الى الاسلام، وأسهموا في طليعته المباركة في دار الأرقم..

وكان عمره يومئذ خمس عشر سنة .. وهكذا رزق الهدى والنور والخير صبيا ..

ولقد كان فارسا ومقداما منذ صباه. حتى ان المؤرخين ليذكرون أن أول سيف شهر في الاسلام كان سيف الزبير .

ففي الأيام الأولى للاسلام، والمسلمون يومئذ قلة يستخفون في دار الأرقم .. سرت اشاعة ذات يوم أن الرسول ﷺ قتل .. فما كان من الزبير الا أن استلّ سيفه وامتشقه، وسار في شوارع مكة، على حداثة سنه كالاعصار !..

ذهب أولا يتبيّن الخبر، معتزما ان ما ألفاه صحيحا أن يعمل سيفه في رقاب قريش كلها حتى يظفر بهم أو يظفروا به..

وفي أعلى مكة لقيه رسول الله ﷺ ، فسأله ماذا به....؟ فأنهى اليه الزبير النبأ.. فصلى عليه الرسول ﷺ ، ودعا له بالخير، ولسيفه بالغلب.

وعلى الرغم من شرف الزبير في قومه فقد حمل حظه من اضطهاد قريش وعذابها.

وكان الذي تولى تعذيبه هو عمه.. كان يلفه في حصير، ويدخن عليه بالنار كي تزهق أنفاسه، وينادي وهو تحت وطأة العذاب :"أكفر برب محمد، أدرأ عنك العذاب."

فيجيبه الزبير الذي لم يكن يوم ذاك أكثر من فتى ناشئ، غضّ العظام.. يجيب عمه في تحدّ رهب :

"لا.. والله لا أعود لكفر أبدا..."

ويهاجر الزبير الى الحبشة، الهجرتين الأولى والثانية، ثم يعود ليشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . لا تفتقده غزوة ولا معركة.

وما أكثر الطعنات التي تلقاها جسده واحتفظ بها بعد اندمال جراحاتها، أوسمة تحكي بطولة الزبير وأمجاده..!!

ولنصغ لواحد من الصحابة رأى تلك الأوسمة التي تزدحم على جسده، يحدثنا عنها فيقول :

"صحبت الزبير بن العوّام في بعض أسفاره ورأيت جسده، فرأيته مجذّعا بالسيوف، وان في صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمي.

فقلت له: والله لقد شهدت بجسمك ما لم أره بأحد قط.

فقال لي: أما والله ما منها جراحة الا مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله.."

غزوة أحد

بعد أن انقلب جيش قريش راجعا الى مكة وندبه الرسول ﷺ هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته حتى يروا أن المسلمين قوة فلا يفكروا في الرجوع الى المدينة واستئناف القتال ..

وقاد أبو بكر والزبير سبعين من المسلمين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتعقبون جيشا منتصرا فان اللباقة الحربية التي استخدمها الصديق والزبير، جعلت قريشا تظن أنها أساءت تقدير خسائر المسلمين، وجعلتها تحسب أن هذه الطليعة القوية التي أجاد الزبير مع الصديق ابراز قوتها، وما هي الا مقدمة لجيش الرسول ﷺ الذي يبدو أنه قادم ليشن مطاردة رهيبة فأغذّت قريش سيرها، وأسرعت خطاها الى مكة..!!

وكَانَتْ عَلَى الزُّبَيْرِ يَوْمَ بَدْرٍ عِمَامَةٌ صَفْرَاءُ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عَلَى سِيْمَاءِ الزُّبَيْرِ.يوم أحد

قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا ابْنَ أُخْتِي !كَانَ أَبَوَاكَ - يَعْنِي: الزُّبَيْرَ، وَأَبَا بَكْرٍ –

من

{ :الَّذِيْنَ اسْتَجَابُوا للّه وَالرَّسُوْلِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ}

لَمّا انْصَرَفَ المُشْرِكُوْنَ مِنْ أُحُدٍ، وَأَصَابَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، فَقَالَ : (مَنْ يَنْتَدِبُ لِهَؤُلاَءِ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ بِنَا قُوَّةً؟.(

فَانْتُدِبَ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ فِي سَبْعِيْنَ، فَخَرَجُوا فِي آثَارِ المُشْرِكِيْنَ، فَسَمِعُوا بِهِمْ، فَانْصَرَفُوا.

قَالَ تَعَالَى : }فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ{ لَمْ يَلْقَوا عَدُوّاً.

يوم اليرموك

كان الزبير جيشا وحده.. فحين رأى أكثر المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة ،

صاح هو" الله أكبر".. واخترق تلك الجبال الزاحفة وحده، ضاربا بسيفه.. ثم قفل راجعا وسط الصفوف الرهيبة ذاتها، وسيف يتوهج في يمينه لا يكبو، ولا يحبو..!!

يوم الخندق

قَالَ رَسُوْلُ الله -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَوْمَ الخَنْدَقِ :

)مَنْ يَأْتِيْنَا بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ؟(.

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، فَذَهَبَ عَلَى فَرَسٍ، فَجَاءَ بِخَبَرِهِمْ.

ثُمّ قَالَ الثّانِيَةَ.

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، فَذَهَبَ.

ثُمّ الثّالِثَةَ.

فَقَالَ النّبِيّ :

)لِكُلّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيّ الزُّبَيْرُ.(

جاراى في الجنة

عَنِ النّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- قَالَ :

)طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ جَارَايَ فِي الجَنّةِ(

وكان رضي الله عنه شديد الولع بالشهادة، عظيم الغرام بالموت في سبيل الله.

وكان يقول:

"ان طلحة بن عبيد الله يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم ألا نبي بعد محمد... واني لأسمي بنيّ بأسماء الشهداء لعلهم يستشهدون!."

وهكذا سمى ولده، عبدالله بن الزبير تيمنا بالصحابي الشهيد عبدالله بن جحش.

وسمى ولده المنذر، تيمنا بالشهيد المنذر بن عمرو.

وسمى عروة تيمنا بالشهيد عروة بن عمرو.

وسمى حمزة تيمنا بالشهيد الجليل عم الرسول حمزة بن عبدالمطلب.

وسمّى جعفر، تيمنا بالشهيد الكبير جعفر بن أبي طالب.

وسمى مصعبا تيمنا بالشهيد مصعب بن عمير.

وسمى خالد تيمنا بالصحابي الشهيد خالد بن سعيد..

وهكذا راح يختار لأبنائه أسماء الشهداء. راجيا أن يكونوا يوم تأتيهم آجالهم شهداء.

ولقد قيل في تاريخه :

"انه ما ولي امارة فط، ولا جباية، ولا خراجا ولا شيئا الا الغزو في سبيل الله."

وكانت ميزته كمقاتل ، تتمثل في في اعتماده التام على نفسه، وفي ثقته التامة بها.

فلو كان يشاركه في القتال مائة ألف، لرأيته يقاتل وحده في لمعركة .. وكأن مسؤولية القتال

والنصر تقع على كاهله وحده .
وكان فضيلته كمقاتل، تتمثل في الثبات، وقوة الأعصاب..
رأى مشهد خاله حمزة يوم أحد وقد مثّل المشركون بجثمانه القتيل في قسوة، فوقف أمامه كالطود ضاغطا على أسنانه، وضاغطا على قبضة سيفه، لا يفكر الا في ثأر رهيب سرعان ما جاء الوحي ينهى الرسول والمسلمين عن مجرّد التفكير فيه !!..
وحين طال حصار بني قريظة دون أن يستسلموا أرسله الرسول ﷺ مع علي ابن أبي طالب ، فوقف أمام الحصن المنيع يردد مع علي قوله :
"والله لنذوقنّ ما ذاق حمزة، أو لنفتحن عليهم حصنهم.."
ثم ألقيا بنفسيهما وحيدين داخل الحصن..
وبقوة أعصاب مذهلة، أحكما انزال الرعب في أفئدة المتحصنين داخله وفتحا أبوابه للمسلمين..!!
ويوم حنين أبصر مالك بن عوف زعيم هوزان وقائد جيش الشرك في تلك الغزوة .. أبصره بعد هزيمتهم في حنين واقفا وسط فيلق من أصحابه، وبقايا جيشه المنهزم، فاقتحم حشدهم وحده، وشتت شملهم وحده ، وأزاحهم عن المكمن الذي كانوا يتربصون فيه ببعض زعماء المسلمين، العائدين من المعركة..!!
ولقد كان حظه من حب الرسول ﷺ وتقديره عظيما..
وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يباهي به ويقول :
"ان لكل نبي حواريا وحواريي الزبير بن العوّام.."
ذلك أنه لم يكن ابن عمته وحسب، ولا زوج أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، بل كان ذلك الوفي القوي، والشجاع الأبيّ، والجوّاد السخيّ، والبائع نفسه وماله لله رب العالمين:
ولقد أجاد حسان بن ثابت وصفه حين قال :
أقام على عهد النبي وهديه حواريّـــــــــــه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه يوالـــــــي وليّ الحق، والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي يصول، اذا ما كان يوم محجّل
له من رسول الله قربى قريبة ومـــــن نصرة الاسلام مجد موثّل
فكم كربة ذبّ الزبير بسيفه عن المصـــطفى، والله يعطي ويجزل
وكان رفيع الخصال، عظيم الشمائل.. وكانت شجاعته وسخاؤه كفرسي رهان..!!
فلقد كان يدير تجارة رابحة ناجحة، وكان ثراؤه عريضا، ولكنه أنفقه في الاسلام حتى مات مدينا..!!
وكان توكله على الله منطلق جوده، ومنطلق شجاعته وفدائيته..
حتى وهو يجود بروحه، ويوصي ولده عبدالله بقضاء ديونه قال له :
"اذا أعجزك دين، فاستعن بمولاي.."
وسال عبد الله: أي مولى تعني..؟
فأجابه: "الله، نعم المولى ونعم النصير.."

يقول عبد الله فيما بعد:

"فوالله ما وقعت في كربة من دينه الا قلت: يا مولى الزبير اقضي دينه، فيقضيه."

وفي يوم الجمل ، كانت نهاية سيدنا الزبير ومصيره ..

فبعد أن رأى الحق نفض يديه من القتال، وتبعه نفر من الذين كانوا يريدون للفتنة دوام الاشتعال ، وطعنه القاتل الغادر وهو بين يدي ربه يصلي ..

وذهب القاتل الى الامام علي يظن أنه يحمل اليه بشرى حين يسمعه نبأ عدوانه على الزبير ، وحين يضع بين يديه سيفه الذي استلبه منه، بعد اقتراف جريمته ..

لكن عليّاً صاح حين علم أن بالباب قاتل الزبير يستأذن، صاح آمرا بطرده قائلا :

"بشّر قاتل ابن صفيّة بالنار.."

وحين أدخلوا عليه سيف الزبير ، قبّله الامام وأمعن بالبكاء وهو يقول :

"سيف طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله!!.."

أهناك تحيّة نوجهها للزبير في ختام حديثنا عنه، أجمل وأجزل من كلمات الامام ..؟؟

سلام على الزبير في مماته بعد محياه ..

سلام، ثم سلام ، على حواري رسول الله.

كاتب المقالة : الشيخ / محمد فرج الأصفر
تاريخ النشر : 09/11/2010
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com